

الإِرَادَةُ لِكَيْ نُؤْمِنَ
المحاضرة ٨: عُبودِيَّةُ الإِرَادَةِ
أ.ر.سي. سرول

مِنْ أَعْجَبِ النِّزَاعَاتِ عَلَى الإِطْلَاقِ الَّتِي نَشَأَتْ فِي السَّاحَةِ اللَّاهُوتِيَّةِ بَيْنَ اللَّاهُوتِيِّينَ، هُوَ النِّزَاعُ الَّذِي نَشَأَ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، بَيْنَ الْعَالِمِ الإِنْسَانَوِيِّ الكَاثُولِيكِيِّ الأَبْرَزِ عَلَى الأَرَجِحِ فِي تِلْكَ الحِقْبَةِ، وَبَيْنَ مَارْتِنِ لُوتْرَ. وَهُوَ دِيسِيدِرِيُوسُ إِيرَازْمُوسُ الرُّوتِرْدَامِي (Desiderius Erasmus of Rotterdam)، الرَّجُلُ الَّذِي أَعَادَ جَمَعَ النِّصِّ المُسْتَلَمَ لِلْعَهْدِ الجَدِيدِ، وَاشْتَهَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ بِعِلْمِهِ وَفِطْنَتِهِ الشَّدِيدَيْنِ. وَهُوَ فِي المَرَاجِلِ الأُولَى مِنَ الإِصْلَاحِ، كَانَ مُؤَيِّدًا لِلُوتْرَ، وَآلَفَ كِتَابَ "ذُو بَرَايِرُ أَوْفُ فُولِي" (*The Praise of Folly*)، الَّذِي كَانَ هُجُومًا لَادْعًا عَلَى فَسَادِ رِجَالِ الدِّينِ دَاخِلَ الكَنِيسَةِ الكَاثُولِيكِيَّةِ. لَكِنْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالقَضَايَا الأَسَاسِيَّةِ لِفِكْرِ الإِصْلَاحِ، اخْتَلَفَ إِيرَازْمُوسُ مَعَ لُوتْرَ، وَظَلَّ وَفِيًّا لِلكَنِيسَةِ الكَاثُولِيكِيَّةِ، ثُمَّ شَرَعَ فِي انْتِقَادِ تَعَالِيمِ مَارْتِنِ لُوتْرَ.

انْدَلَعَ الجَدَلُ فِي عَامِ ١٥٢٤، عِنْدَمَا نَشَرَ إِيرَازْمُوسُ كِتَابَهُ بِعُنْوَانِ "حُرِّيَّةُ الإِرَادَةِ" (*The Diatribe Concerning Free Will*)، الَّذِي تَضَمَّنَ نَقْدًا شَامِلًا لِللاهوتِ لُوتْرَ وَالمُصْلِحِينَ. وَفِي العَامِ التَّالِي، عَامِ ١٥٢٥، رَدَّ لُوتْرَ عَلَى كِتَابِ إِيرَازْمُوسُ بِكِتَابِهِ الشَّهِيرِ "دِي سِيرْفُو أَرِبِيْتْرِيُو" (*De Servo Arbitrio*)، وَمَعْنَاهُ "عُبودِيَّةُ الإِرَادَةِ".

مِنْ بَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ كِتَابًا وَصَلُوا إِلَيْنَا بِقَلَمِ مَارْتِنِ لُوتْرَ، اعْتَبَرَ لُوتْرَ نَفْسَهُ أَنَّ أَهَمَّ مَوْلَفَاتِهِ هُوَ كِتَابُ "عُبودِيَّةُ الإِرَادَةِ"، الَّذِي يَحْوِي رَدَّهُ عَلَى إِيرَازْمُوسُ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ مُعْظَمَ مُؤَرِّخِي الكَنِيسَةِ وَاللَّاهُوتِيِّينَ أَيْدُوا تَقْيِيمَ لُوتْرَ لِهَذَا الكِتَابِ بِأَنَّهُ أَهَمُّ مَوْلَفَاتِهِ. أَوْصِي بِقِرَاءَةِ كِتَابِ "عُبودِيَّةُ الإِرَادَةِ"، لِأَنَّهُ يَظَلُّ مِنَ الكَلَّاسِيكِيَّاتِ المَسِيحِيَّةِ، وَلِأَنَّهُ يُمَثِّلُ أَهَمِّيَّةَ حَيَوِيَّةَ لِهَذَا الجَدَلِ بِرُمَّتِهِ المُتَعَلِّقِ بِحُرِّيَّةِ الإِرَادَةِ، وَعَلاَقَتِهَا بِكُلِّ مِنَ عَقِيدَةِ الإِخْتِيَارِ وَعَقِيدَةِ الحُطِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ.

نَعْلَمُ، مَثَلًا، أَنَّ شِعَارَ الإِصْلَاحِ، وَالقَضِيَّةَ الأَسَاسِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ مَثَارَ جَدَلٍ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، تَتَعَلَّقُ بِمَفْهُومِ "سُولا فيدي"، وَهُوَ الشِّعَارُ الَّذِي مَعْنَاهُ "الإِيمَانُ وَحْدَهُ"، وَالَّذِي يُلَخِّصُ عَقِيدَةَ لُوتْرَ عَنِ التَّبَرُّيرِ بِالإِيمَانِ وَحْدَهُ. لَكِنَّ لُوتْرَ اعْتَبَرَ أَنَّ عَقِيدَةَ التَّبَرُّيرِ هِيَ، مِنْ نَاحِيَةِ مَا، الجُزْءُ الظَّاهِرُ مِنْ هَذَا الجَدَلِ، وَأَنَّ هُنَاكَ مَسْأَلَةٌ لاهوتِيَّةٌ أخطرُ مُسْتَتِرَةٌ تَحْتَ السَّطْحِ، لَكِنَّهَا لَعِبَتْ بِالتَّأَكِيدِ دَوْرًا حَيَوِيًّا فِي الجَدَلِ الَّذِي قَسَمَ الْعَالَمَ المَسِيحِيَّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَهِيَ عَقِيدَةُ "سُولا جَرَانِيَا" (النِّعْمَةُ وَحْدَهَا).

بِحَسْبِ لُوثِرٍ، يَنْبُعُ "سُولَا فَيْدِي" مِنْ "سُولَا جِرَاتِيَا"، وَيَعْتَمِدُ عَلَى "سُولَا جِرَاتِيَا"، وَيَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ "سُولَا جِرَاتِيَا". وَفِي كِتَابِ لُوثِرٍ عَنِ عُبُودِيَّةِ الْإِرَادَةِ، وَفِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنِ عَقِيدَةِ الْإِخْتِيَارِ أَوْ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ، تِلْكَ الْعَقِيدَةُ الْمُثِيرَةُ لِحَدَلٍ كَبِيرٍ، أَدْلَى بِتَعْلِيْقٍ مُفَادُهُ أَنَّ الْإِخْتِيَارَ، فِي رَأْيِهِ، هُوَ "كُورِ إِيكَلِيذِيَا"، أَوْ قَلْبُ الْكَنِيسَةِ.

مَرَّةً أُخْرَى، يَجِبُ أَنْ تَتَذَكَّرُوا أَنَّ لُوثِرَ كَانَ رَاهِبًا أَوْغُسْطِينِيًّا، وَكَانَ مُرْشِدُهُ الرُّوحِيُّ الْأَسَاسِيُّ هُوَ أَوْغُسْطِينُوسُ. وَأَوْغُسْطِينُوسُ شَدَّدَ بِقُوَّةٍ قَبْلَ هَذَا بِقُرُونٍ عَلَى مَفْهُومِ "سُولَا جِرَاتِيَا"، أَيْ إِنَّنَا نَخْلُصُ بِالنِّعْمَةِ وَحَدَهَا. وَلِهَذَا، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ التَّبَرُّيرُ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ، مِثْلَمَا أَعْلَنَ بُولُسُ، حِينَ قَالَ فِي رِسَالَةِ أَفَسَسِ إِنَّنَا تَبَرَّرْنَا بِالنِّعْمَةِ بِالْإِيمَانِ.

إِذَنْ، حَاوَلْ لُوثِرُ الْعُوْصَ تَحْتَ سَطْحِ مَسْأَلَةِ التَّبَرُّيرِ الْأَسَاسِيَّةِ، لِلْوُصُولِ إِلَى أُسُسِهَا الْكَامِنَةِ فِي عَقِيدَةِ النِّعْمَةِ الْكِلَاسِيكِيَّةِ، وَهَذَا يَتَطَرَّقُ فِي الْحَالِ بِالتَّأَكُّيدِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَدَى سُقُوطِنَا وَقُوَّةِ إِرَادَتِنَا الْبَشَرِيَّةِ.

وَفِي كِتَابِ إِيْرَازْمُوسَ، قَالَ إِنَّ مَسْأَلَةَ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ فِي هَذَا الْجَدَلِ بِرُمْتِهِ لَيْسَتْ مُهِمَّةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ. فَهِيَ مَسْأَلَةٌ أَكَادِيمِيَّةٌ، وَتَقْنِيَّةٌ، مِنْ الْأَفْضَلِ تَرْكُهَا لِلْعُلَمَاءِ، وَالْأَيُّ يَنْشَغِلُ النَّاسَ بِهَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ.

تَتَذَكَّرُ أَنَّهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَيْضًا، حِينَ تَدْرُسُونَ مَوْقِفَ إِيْرَازْمُوسَ، سَتَرَوْنَ مَدَى عُمُوضِهِ، وَفِي رَأْيِي الصَّرِيحِ، مَدَى تَحْبُّطِهِ. فَقَدْ تَأْرَجَحَ بَيْنَ أَفْكَارٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ الْحُرِّيَّةِ وَالنِّعْمَةِ. لَكِنَّهُ قَالَ أَيْضًا إِنَّهُ فِي مَسَائِلٍ مُعَيَّنَةٍ كَهَذِهِ، هُوَ يُفَضِّلُ كَأَكَادِيمِيٍّ تَأْجِيلَ إِصْدَارِ حُكْمِهِ، وَعَدَمَ تَأْيِيدِ هَذَا الرَّأْيِ أَوْ ذَاكَ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ التَّصَرُّفُ الْمُتَعَقِّلُ فِي الْمَسَائِلِ مِنْ هَذَا النَّوعِ. فَردَّ لُوثِرُ، بِأَسْئَلِهِ الْمَعْهُودِ، قَائِلًا: "كَفَانَا مِنَ الشُّكُوكِيِّينَ! كَفَانَا مِنَ الْأَكَادِيمِيِّينَ! سِيْرِيْبُتُوسُ سَانِكُتُوسُ نُونُ إِيْسُ سِكِيْبِتِيْتُوسُ" (*Spiritus Sanctus non es sceptitus*). فَالرُّوحُ الْقُدُسُ لَيْسَ شُكُوكِيًّا، وَالْحَقَائِقُ الَّتِي أَعْلَنَهَا أَثْمَنُ لَنَا مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا.

وَفِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْمِيَّةِ مَسْأَلَةِ دَرَجَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْإِنْسَانُ السَّاقِطُ أَوْ يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا، أَدْلَى لُوثِرُ بِتَعْلِيْقٍ، رَدًّا عَلَى إِيْرَازْمُوسَ. قَالَ إِيْرَازْمُوسُ إِنَّ عَقِيدَةَ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ هِيَ "وَاحِدَةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ عَدِيْمَةِ الْجُدُوى الَّتِي يُمَكِّنُ الْاسْتِغْنَاءَ عَنْهَا". فَقَالَ لُوثِرُ: "هَلْ مِنَ التَّفَاهَةِ، أَوْ عَدَمِ التَّدْبِيرِ أَوْ عَدَمِ الْجُدُوى، أَنْ نَرْغَبَ فِي مَعْرِفَةِ مَا إِذَا كَانَ لِإِرَادَتِنَا أَيُّ تَأْثِيرٍ، فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَلَاصِ الْأَبَدِيِّ، أَمْ إِنَّهَا سَلْبِيَّةٌ تَمَامًا أَمَامَ عَمَلِ النِّعْمَةِ؟ حَسَنًا، أَنْتَ الْآنَ تَقُولُ الْعُكْسَ، بِقَوْلِكَ إِنَّ التَّقْوَى الْمَسِيحِيَّةَ تَتَمَثَّلُ فِي جِهَادِنَا بِكُلِّ قُوَّتِنَا، وَكَذَلِكَ إِنَّهُ دُونَ رَحْمَةِ اللَّهِ، تَكُونُ إِرَادَتُنَا غَيْرَ فَعَالَةٍ. فَإِنَّكَ تُوكِّدُ بِوُضُوحٍ أَنَّ الْإِرَادَةَ نَشِطَةً بِشَكْلِ مَا فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَلَاصِ - أَوْ تَصِفُهَا بِأَنَّهَا تُجَاهِدُ - ثُمَّ تَصِفُهَا بِأَنَّهَا مَوْضُوعُ الْعَمَلِ الْإِلَهِيِّ، بِقَوْلِكَ إِنَّهَا غَيْرُ فَعَالَةٍ دُونَ رَحْمَةِ اللَّهِ. لَكِنَّكَ لَمْ تُبَيِّنِ الْحُدُودَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ ضِمْنَهَا بَيْنَ كَوْنِ

الإِرَادَةُ تَعْمَلُ أَوْ يُعْمَلُ عَلَيْهَا. فَقَدْ بَدَلْتَ جَهْدًا كَبِيرًا كَيْ تُؤَلِّدَ جَهْلًا بِتَأْثِيرِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِرَادَةَ الْإِنْسَانِ، بِتَعْلِيمِكَ عَنْ دَوْرِ إِِرَادَةِ الْإِنْسَانِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ".

هَذَا مَا قَصَدَهُ لُوْثَرُ. إِنَّ مَسْأَلَةَ الدَّوْرِ الَّذِي يَلْعَبُهُ اللَّهُ فِي خَلَاصِي، وَالدَّوْرِ الَّذِي أَلْعَبُهُ أَنَا فِي خَلَاصِي، وَثِيقَةُ الصَّلَاةِ بِتَوْجُّهِنَا الرُّوحِيِّ مِنْ نَحْوِ اللَّهِ، وَوَثِيقَةُ الصَّلَاةِ بِفَهْمِنَا لِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَبِتَقْدِيرِنَا لِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَبِعِبَادَتِنَا لِلَّهِ، وَاتِّكَالِنَا عَلَيْهِ. فَهَنَّاكَ أَهْمِيَّةً كَبِيرَةً، وَفَقَّا لُوْثَرُ، لِرَأْيِنَا بِشَأْنِ خَلَاصِنَا، إِنْ كَانَ فِي النِّهَايَةِ هُوَ عَمَلُ اللَّهِ، أَمْ أَنَّهُ أَمْرٌ مُحَقَّقُهُ بِجَهْدِنَا، وَجِهَادِنَا، وَاسْتِحْقَاقِنَا.

نَرَى هُنَا شِعَارًا آخَرَ مِنْ شِعَارَاتِ الْإِصْلَاحِ مُحْتَفِيًّا وَرَاءَ الْكَوَالِيْسِ، وَهُوَ التَّعْبِيرُ -لَنْ أَضَيِّعَ وَقْتًا فِي كِتَابَتِيهِ- "سُولِي دِيو جُلُورِيَا" - "لِلَّهِ وَحْدَهُ الْمَجْدُ". هَلْ يَجُوزُ أَنْ أَنْتَقِصَ مِنَ الْمَجْدِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَى اللَّهِ لِأَجْلِ فِدَائِي، مُعْتَصِبًا لِنَفْسِي بَعْضَ الْمَدْحِ وَالْمَجْدِ؟ أَمْ إِنَّ التَّوَجُّهَ الرُّوحِيَّ السَّلِيمَ لِلْقَلْبِ الْمَسِيحِيِّ التَّقِيَّ أَنْ يَفْهَمَ أَنَّ الْخَلَاصَ هُوَ مِنَ الرَّبِّ، وَأَنَّنَا أَنْقِدْنَا وَنَحْنُ عَبِيدٌ عَاجِزُونَ عَنْ تَحْرِيرِ أَنْفُسِهِمْ، أَوْ مَدِينُونَ عَاجِزُونَ عَنْ تَسْجِيدِ دُيُونِهِمْ، مِمَّا يَدْفَعُنَا إِلَى مَدْحِ نِعْمَةِ اللَّهِ طَوَالَ حَيَاتِنَا؟ قَالَ لُوْثَرُ: "هَذِهِ مَسْأَلَةٌ بِالْعَةِ الْأَهْمِيَّةِ لِسَلَامَةِ حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ، وَبِالتَّالِي، لَيْسَتْ مَسْأَلَةٌ تُتْرَكُ لِلْكَادِمِيِّينَ أَوْ الْعُلَمَاءِ وَحْدَهُمْ".

أَكْرُرُ، كَانَ إِيرَازُمُوسُ قَلْبًا حِيَالًا بَعْضِ الْعَوَاقِبِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي قَدْ تَتَرَّبَتْ عَلَى التَّعْلِيمِ الْإِصْلَاحِيِّ عَنِ الْعَجْزِ الْأَخْلَاقِيِّ لِلْإِنْسَانِ وَسِيَادَةِ النِّعْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَقَالَ: "أَيُّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ عَدِيمَ الْجُدُوى أَكْثَرَ مِنَ التَّرْوِيحِ لِيَلْكَ الْمُقَارَقَةُ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ كُلَّ مَا يُعْمَلُ لَا يُعْمَلُ بِجُرِّيَّةِ إِرَادَتِنَا، بَلْ بِمُوجِبِ الضَّرُورَةِ. أَمَّا رَأْيِي أَوْعُسْطِينُوسُ عَنْ كَوْنِ اللَّهِ يَعْْمَلُ فِينَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَيُكَافِئُ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ فِينَا، وَيُعَاقِبُ أَعْمَالَهُ الشَّرِّيرَةَ فِينَا"، قَالَ إِيرَازُمُوسُ، "فَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْتَحَ فَيْصَانًا مِنَ الْإِثْمِ، وَأَنْ يَنْشُرَ هَذِهِ الْأَفْكَارَ عَلَانِيَةً بَيْنَ النَّاسِ". ثُمَّ طَرَحَ هَذَا السُّؤَالَ الْعَمَلِيَّ: "إِذَا عَلَّمْنَا عَقِيدَةَ الْاِخْتِيَارِ، فَأَيُّ إِنْسَانٍ شَرِّيرٍ سَيُصْلِحُ حَيَاتَهُ؟ وَمَنْ سَيُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ؟ وَمَنْ سَيُصَارِعُ ضِدَّ جَسَدِهِ؟"

إِذَا كُنْتُمْ تَذْكُرُونَ، حِينَ تَحَدِّثُنَا عَنِ النِّظَامِ الَّذِي يُسَمَّى شِبْهَ الْبِيلاجِيَّةِ، وَنَظَرْنَا إِلَى كِتَابَاتِ كَاسِيَانِ، أَوْ كَاسِيَانُوسِ، رَأَيْنَا كَاسِيَانُوسَ يَتَفَاعَلُ ضِدَّ تَعْلِيمِ أَوْعُسْطِينُوسَ عَنِ الطَّبِيعَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَيُبْذِي هَذِهِ الْاِعْتِرَاضَاتِ نَفْسَهَا عَلَى أَوْعُسْطِينُوسِ، قَائِلًا إِنَّهُ إِنْ نَادَيْنَا بِعَقِيدَةِ الْاِخْتِيَارِ، وَبِالْعَجْزِ الْأَخْلَاقِيِّ لِلْإِنْسَانِ، تَكُونُ هَذِهِ نِهَآيَةَ الْكِرَازَةِ، وَنِهَآيَةَ التَّبْشِيرِ، وَنِهَآيَةَ سَعْيِ أَيِّ إِنْسَانٍ إِلَى الْإِصْلَاحِ مِنْ نَفْسِهِ.

كَيْفَ كَانَ رَدُّ لُوْثَرُ؟ اسْمَعُوا رَدَّهُ. صَاعَ لُوْثَرُ رَدَّهُ قَائِلًا: "أَنْتَ تَقُولُ يَا إِيرَازُمُوسُ: "مَنْ سَيُحَاوِلُ الْإِصْلَاحَ مِنْ نَفْسِهِ؟" وَكَانَ رَدُّ لُوْثَرُ: "لَا أَحَدٌ". وَسَأَلَ إِيرَازُمُوسُ: "وَمَنْ سَيُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ؟" أَجَابَ لُوْثَرُ: "لَا أَحَدٌ، فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ. لَكِنَّ"

المُخْتَارِينَ سَيُؤْمِنُونَ بِهِدَا، أَمَا الْبَاقُونَ، فَسَيَهْلِكُونَ دُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا، سَاخِطِينَ وَمُجَدِّفِينَ. قَالَ إِيرَازُمُوسُ إِنَّ فَيَضَانًا مِنَ الْإِثْمِ سَيَنْفَتِحُ بِسَبَبِ تَعَالِيَمِنَا، فَردَّ لُوثر: "فَلْيَكُنْ!"

كَانَ لُوثرُ مُسْتَعِدًّا لِلْوُصُولِ بِالْحُجَّةِ إِلَى النِّهَايَةِ، فَقَالَ: "انْتَبِهْ! مَا عَلَى الْمِحَكِّ هُنَا هُوَ طَبِيعَةُ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ تَعْلِيمُنَا لِمَا يُعَلِّمُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِشَأْنِ اعْتِمَادِنَا التَّامِّ فِي فِدَائِنَا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ سَيَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ بَدْلِ الْجُهْدِ لِلْمَجِيءِ إِلَى اللَّهِ فِي مَوْتِهِمِ الرُّوحِيِّ؛ وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ فَيَضَانُ الْإِثْمِ الَّذِي سَيَنْفَتِحُ، فَلْيَنْفَتِحْ. فَمَا لُبُّ الْأَمْرِ مِنَ الْأَسَاسِ؟ مَنْ سَيَحَاوِلُ الْإِصْلَاحَ مِنْ نَفْسِهِ؟ وَمَنْ سَيَسْتَمِيلُ نَفْسَهُ إِلَى أُمُورِ اللَّهِ إِذَا عَلَّمْنَا هَذِهِ الْعَقِيدَةَ؟ لَا أَحَدًا، لِأَنَّ لَا أَحَدًا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ بِأَيِّ حَالٍ، وَلَا أَحَدًا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَيِّ حَالٍ". هَذَا هُوَ لُبُّ الْأَمْرِ كَمَا أَوْضَحَهُ الرَّسُولُ بُولُسُ: لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللَّهَ. فَإِنَّا فِي حَالَتِنَا السَّاقِطَةِ مُسْتَعْبِدُونَ لِحَطَايَانَا، لِدَرْجَةِ أَنَّنَا لَا نُرِيدُ الْإِقْبَالَ إِلَى أُمُورِ اللَّهِ. هَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي حَاوَلَ لُوثرُ تَوْضِيحَهَا. إِذَنْ، أَنْتَ تَقُولُ: "إِنَّ عَلَّمْتُ النَّاسَ بِذَلِكَ فِي حَالَتِهِمِ السَّاقِطَةِ، لَنْ يُجَاهِدُوا النِّبْتَةَ أَوْ يَسْتَمِيلُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْمَجِيءِ إِلَى اللَّهِ، وَسَيَتَوَقَّفُونَ عَنِ بَدْلِ الْجُهْدِ وَاسْتِمَالَةِ أَنْفُسِهِمْ لِلْمَجِيءِ إِلَى اللَّهِ. لَكِنَّهُمْ عَلَى أَيِّ حَالٍ عَاجِزُونَ عَنِ ذَلِكَ". هَذَا مُنَافٍ لِلْعَقْلِ. وَقَالَ أَيْضًا: "الْمُشْكَلَةُ الَّتِي نُعَانِي مِنْهَا فِي حَالَتِنَا السَّاقِطَةِ هِيَ أَنْ لَا أَحَدًا يُرِيدُ اللَّهَ. لَسْنَا نُرِيدُ اللَّهَ فِي فِكْرِنَا، وَلَسْنَا نُرِيدُ اللَّهَ فِي حَيَاتِنَا، وَلَسْنَا نَفْضَلُ اللَّهَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ، لَكِنَّنَا نَهْرُبُ مِنَ اللَّهِ بِالسَّرْعِ وَإِلَى أُنْبَعْدِ مَا يُمَكِّنُ، وَرَجَاؤُنَا الْوَحِيدُ هُوَ أَنْ يَطْلُبَنَا اللَّهُ، وَيَعَيِّرَ اتِّجَاهَنَا، وَيُخَضِّرَنَا إِلَيْهِ".

لَا حِقًّا، تَتَاوَلَ لُوثرُ تَعْرِيفَ إِيرَازُمُوسَ لِحُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، وَنَقَلَهُ فِي كِتَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَفْتَرِضُ، إِذَنْ، أَنَّ قُوَّةَ الْإِرَادَةِ الْبَشَرِيَّةَ تَعْنِي الْقُدْرَةَ أَوْ الْإِمْكَانِيَّةَ أَوْ الْمَيْلَ أَوْ الِاسْتِعْدَادَ سِوَاءَ أَنْ نَرْغَبَ أَوْ لَا نَرْغَبَ، وَأَنْ نَخْتَارَ أَوْ نَرْفُضَ، وَأَنْ نُوَفِّقَ أَوْ لَا نُوَفِّقَ، وَأَنْ نَقُومَ بِكُلِّ أَعْمَالِ الْإِرَادَةِ الْآخَرَى. فَإِنَّ الْمَجْدَابَ هَذِهِ الْقُوَّةَ أَوْ نُفُورَهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُشِيرَ سِوَى إِلَى الرَّغْبَةِ الْفِعْلِيَّةِ أَوْ عَدَمِ الرَّغْبَةِ، وَإِلَى الْاِخْتِيَارِ أَوْ الرِّفْضِ، وَإِلَى الْقُبُولِ أَوْ عَدَمِ الْقُبُولِ، أَيُّ إِلَى عَمَلِ الْإِرَادَةِ نَفْسِهَا. يَجِبُ أَنْ نَفْتَرِضَ إِذَنْ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ تَقُفُ مَا بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَعَمَلِهَا، وَبِهَا تُسَبِّبُ الْإِرَادَةُ فِعْلَ الرَّغْبَةِ أَوْ عَدَمِ الرَّغْبَةِ، وَبِوَسَائِطِهَا يَتَحَقَّقُ فِعْلُ الرَّغْبَةِ أَوْ عَدَمِ الرَّغْبَةِ. وَلَا يُمَكِّنُ تَصَوُّرُ شَيْءٍ آخَرَ".

قَدْ يَبْدُو الْأَمْرُ مُبْهَمًا قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ. وَهَذَا الْمَفْهُومُ الَّذِي قَرَأْتَهُ لِتَوَيِّ مِنْ كِتَابِ لُوثرُ سَيَقْدِمُهُ جُونَاثَانُ إِدْوَارْدُزْ لَاحِقًا بِمَزِيدٍ مِنَ الْوُضُوحِ. لَكِنْ بِبَسَاطَةٍ، طَرَحَ لُوثرُ السُّؤَالَ التَّالِيَّ: "إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِرِمْتِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى رَغْبَتِكَ أَوْ عَدَمِ رَغْبَتِكَ، وَعَلَى رَفْضِكَ أَوْ قُبُولِكَ، وَعَلَى اخْتِيَارِكَ أَوْ عَدَمِ اخْتِيَارِكَ، أَنْ تَتَعَاوَنَ مَعَ نِعْمَةِ اللَّهِ - أَيُّ إِذَا كَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تُعْطَى لَكَ، وَلِهَذَا الشَّخْصِ، وَذَلِكَ، لَكِنْ فِي النِّهَايَةِ، يَتَحَدَّدُ مَصِيرُكَ وَفَقًّا لِحُرِّيَّةِ إِرَادَتِكَ أَوْ حُرِّيَّةِ إِرَادَتِهِ، فَمَا الَّذِي يَكْمُنُ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ السَّاقِطَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَدْفَعَ إِرَادَةَ أَحَدِهِمْ إِلَى أَنْ تَقُولَ: "نَعَمْ"، وَإِرَادَةَ آخَرَ إِلَى أَنْ تَقُولَ: "لَا؟"

هَذَا شَيْءٌ يَقَعُ بَيْنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الرَّغْبَةِ وَفِعْلِ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ. قَطْعًا، قَالَ أَوْعَسْطِينُوسُ مُنْذُ قُرُونٍ، وَوُثِرَ أَيْضًا، إِنَّ هَذَا الشَّيْءَ هُوَ مِثْلُ النَّفْسِ أَوْ رَغْبَتِهَا. فَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ "نَعَمْ" لِلنِّعْمَةِ، فَهَذَا فَقَطْ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ "نَعَمْ" لِلنِّعْمَةِ. وَإِنْ قَالَ آخَرُ "لَا" لِلنِّعْمَةِ، فَهَذَا فَقَطْ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ "لَا" لِلنِّعْمَةِ. لَيْسَ هُنَاكَ أَبْسَطُ مِنْ ذَلِكَ. فَمِنْ السَّهْلِ جِدًّا عَرْضُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ. لَكِنْ تَكْمُنُ الصُّعُوبَةُ فِي تَحْدِيدِ سَبَبِ قَوْلِ أَحَدِهِمْ "نَعَمْ" وَقَوْلِ آخَرَ "لَا". مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الَّذِي قَالَ "نَعَمْ" لَدَيْهِ رَغْبَةٌ إِيْجَابِيَّةٌ نَحْوَ اللَّهِ، قَبْلَ حَتَّى أَنْ يُؤَلِّدَ مِنَ الرُّوحِ. لَكِنْ لَيْسَ لَدَى الشَّخْصِ الْآخَرَ مِثْلُ إِيْجَابِيَّةٍ نَحْوَ اللَّهِ. وَمَنْ لَدَيْهِ الْمِثْلُ الصَّحِيحُ سَيَتَّخِذُ الْقَرَارَ السَّلِيمَ. وَمَنْ لَدَيْهِ مِثْلُ خَاطِئٍ سَيَتَّخِذُ الْقَرَارَ الْخَاطِئَ. وَلَوْ كَانَ عَمَلُ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ هُوَ مَا يُحَدِّدُ ذَلِكَ فِي النِّهَايَةِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ أَحَدَهُمْ فَعَلَ بَرًّا، فِي حِينِ فَعَلَ الْآخَرَ شَرًّا. وَأَنَّهُ لَدَى هَذَا الشَّخْصِ مَا يَفْتَحِرُ بِهِ، بَيْنَمَا لَيْسَ لَدَى ذَلِكَ الشَّخْصِ مَا يَدْعُوهُ لِلْإِفْتِحَارِ.

أَصْبَحَ الْأَمْرَ عَادَةً كَالثَّلَاثِي. فَإِنِّي أَسْأَلُ أَحَدَهُمْ: "لِمَاذَا أَنْتَ مُؤْمِنٌ بَيْنَمَا قَرِيبِكَ لَا يُؤْمِنُ؟" فَيُجِيبُنِي: "حَسَنًا، لِأَنِّي اخْتَرْتُ ذَلِكَ وَهُوَ اخْتَارَ الْعَكْسَ". فَأَقُولُ: "حَسَنًا، هَلْ هَذَا لِأَنَّكَ أَتَرُّ مِنْهُ؟" بِمَ سَيُجِيبُ الْمُؤْمِنُ الْعَادِي عَنِ هَذَا السُّؤَالِ؟ تَعْرِفُونَ الرَّدَّ. تَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَا يُفْتَرَضُ بِكُمْ أَنْ تَقُولُوا: "حَسَنًا، أَنَا مُؤْمِنٌ، عَلَى عَكْسِ غَيْرِي، لِأَنِّي أَتَرُّ". فَحَقِيقَةُ الْبِرِّ الدَّائِيَّةِ أَنْ أَقُولَ إِنَّ سَبَبَ دُخُولِي إِلَى الْمَلَكُوتِ وَبَقَاءِ شَخْصٍ آخَرَ خَارِجَهُ هُوَ أَنِّي بَارٌّ بَيْنَمَا هُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ. أَشْبَهَ بِهَذَا الْفَرِيسِيِّ الَّذِي دَخَلَ الْهَيْكَلَ، وَرَاحَ يَتَبَاهَى بِعِلَاقَتِهِ بِاللَّهِ. فَمُعْظَمُ الْمُؤْمِنِينَ يَتَجَبَّبُونَ قَوْلَ إِنَّ السَّبَبَ هُوَ أَنَّهُمْ أَتَرُّ، لَكِنَّهُمْ يَتَوَقَّفُونَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ. فَأَقُولُ: "حَسَنًا، أَهَذَا لِأَنَّكَ أَذْكَى مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصِ؟" لَنْ يَرْعَبَ أَحَدٌ فِي قَوْلِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي سَأَلْتُهُ فِي الْحَالِ: "وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذَا الذِّكَاةِ؟ هَلْ رَجَحْتَهُ بِجُهْدِكَ أَمْ أَخَذْتَهُ؟ أَمْ إِجَارُ أَمْ عَطِيَّةٌ؟" وَهَذَا سَيَرْعَبُ الْكَثِيرُونَ فِي إِنْهَاءِ الْحَدِيثِ. قَدْ يُجِيبُ أَحَدُهُمْ: "لَيْسَ السَّبَبُ هُوَ أَنِّي أَتَرُّ". فَسَأَلْتُ: "وَلِمَ لَا؟" هَلْ اتَّخَذْتَ الْقَرَارَ السَّلِيمَ؟ "أَجَلْ". "وَهَلْ اتَّخَذْتَ قَرَارًا خَاطِئًا؟" "أَجَلْ". "وَهَلْ مِنَ الْجَيِّدِ أَنْتَ اتَّخَذْتَ هَذَا الْقَرَارَ؟" "أَجَلْ". "وَهَلْ مِنَ الْخَطِّ أَنَّهُ اتَّخَذَ ذَلِكَ الْقَرَارَ؟" "أَجَلْ". "إِذَنْ، لِمَ لَا تَقُولَ إِنَّكَ أَتَرُّ مِنْهُ؟" لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ. لَكِنْ، سَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ قَوْلُ ذَلِكَ إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ حَقًّا بَأَنَّ مَا يُحَدِّدُ دُخُولَهُ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ فِي النِّهَايَةِ هُوَ الْقَرَارُ السَّلِيمُ الَّذِي اتَّخَذَهُ حِينَ سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ.

الْمَسْأَلَةُ الْآخَرَى الَّتِي تَجَادَلُ فِيهَا لُوتَرُ مَعَ إِبْرَاهِيمُوسَ هِيَ الَّتِي قَرَأْتَهَا مُنْذُ قَلِيلٍ، وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِشَكْوَى إِبْرَاهِيمُوسَ بِشَأْنِ الضَّرُورَةِ. فَقَدْ قَالَ إِنَّهُ بِحَسَبِ لُوتَرُ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مُسَبِّقًا، وَيَعْلَمُ مَا سَيَحْدُثُ، فَكُلُّ مَا يَحْدُثُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْدُثُ إِذَنْ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ. وَإِنْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يَحْدُثُ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ، فَلَا يُمْكِنُنَا الْبَتَّةُ أَنْ نَكُونَ أَحْرَارًا. فَحَسَبِ إِبْرَاهِيمُوسَ، الضَّرُورَةُ تَعْنِي الْإِكْرَاهَ. فَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُنَا ضَّرُورِيَّةً بِحَسَبِ سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ، يَرَى إِبْرَاهِيمُوسَ أَنَّهَا تَحْدُثُ إِذَنْ بِنَوْعٍ مِنَ الْإِكْرَاهِ. أَجَابَ لُوتَرُ: "كَلَّا كَلَّا". ثُمَّ قَالَ: "لَا يُرْغِمُنِي اللَّهُ عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ الَّتِي أَتَّخِذُهَا فِي حَيَاتِي الْيَوْمِيَّةِ الْعَادِيَّةِ، لَكِنَّهَا ضَّرُورِيَّةٌ بِحَسَبِ عِلْمِهِ. لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْيَوْمَ مَا سَأَفْعَلُهُ عَدَا بِحُرِّيَّتِي، وَدُونَ إِرْغَامِ

مِنْهُ، فَهَلْ سَأَفْعَلُ ذَلِكَ غَدًا؟ فَهَلْ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ غَدًا؟ مِنَ الضَّرُورِيِّ بِكُلِّ تَأَكِيدٍ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَرْتَكِبُ أخطاءً فِي عِلْمِهِ. لَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَرَعَمَنِي عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّ الصُّدْقَةَ أَوْ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ قَدْ أَرَعَمَنِي. فَعِلْمُ اللَّهِ مُسَبِّقًا بِمَا سَأَفْعَلُهُ لَا يَعْنِي أَنَّهُ يُرَعِمُنِي عَلَى فِعْلِهِ. وَلِهَذَا مَبْزَلُوثٌ بَيْنَ ضَرُورَةِ التَّيَجَةِ الْمُنْطِقِيَّةِ وَضَرُورَةِ النَّتَائِجِ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ تَقْنِيٌّ لِلْأَمْرِ. لَكِنَّهُ قَالَ لِإِرَازْمُوسَ: "لَسْنَا نَعْلَمُ، بِرَأْيِنَا عَنِ الْإِخْتِيَارِ أَوْ عَنِ السِّيَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي سُقُوطِ الْإِنْسَانِ، بِأَنَّ اللَّهَ يُرَعِمُ الْخُطَاةَ عَلَى أَنْ يُخْطِئُوا". وَقَالَ: "يُخْتَارُ النَّاسُ مَا يُرِيدُونَ، لَكِنَّ الْمُسْكَلَةَ هِيَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الشَّرَّ". فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُمْ سَيُخْتَارُونَ مَا يُرِيدُونَ، بِحَسَبِ عِلْمِ اللَّهِ بِالْأَمْرِ، لَكِنَّ اللَّهَ لَا يُرَعِمُ الَّذِينَ يُرَعِبُونَ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُرَعِمُ الَّذِينَ يُرَعِبُونَ فَقَطْ فِي فِعْلِ الشَّرِّ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ.

الدكتور أ. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سأنفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".